الفصل الأول

مضامين الروايات

الفصل الأول
مضامين الروايات

الرواية الأولى: الضلع المفقود

صدرت رواية الضلع المفقود عن دار العودة للدراسات والنشر في القدس العام (1992)، بالتعاون مع اتحاد الكتَّاب الفلسطينيين، وتقع الرواية في (284) صفحة من الحجم الكبير، وتدور أحداثها في البلدة القديمة من القدس الشريف، في حي الواد الذي تصفه في الصفحات الأولى من الرواية قائلة: "حي الواد منحدر قديم.. ينساب من جبال القدس العتيدة.. شكلته منذ آلاف السنين الطبيعة.. عُرف قبل أن يعرف الزمن له تاريخًا.."(٥)، ويمتد زمن الرواية بين أواخر حكم الأتراك مرورًا بأيام المجاعة و(السفر برلك) وانتهاءً بنكبة فلسطين العام ثمانية وأربعين، وتصف لنا حياة الأسرة الفلسطينية وطبيعة أعمالها وعاداتها وتقاليدها، وارتباطها في مدينتها ومسجدها الذي سرى إليه النبي محمد

(٥) ديمة السمان، الضلع المفقود، ط1، القدس: دار العودة للدراسات والنشر، 1992، ص3.

صلى الله عليه وسلم وعرج منه إلى السموات العلى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وأبطال روايتها (سليم العطار) الذي يعمل بالعطارة والطب الشعبي، وعائلته المقدسية، فسليم الذي لم تنجب له زوجته ولدًا يحظى بالصدفة بعروس أخرى من أصل هندي (عنبرة) شاءت الظروف أن يتعرف إليها بعد وفاة زوجها الهندي في موسم الحج، يتزوجها على الرغم من معارضة أهل الحي على زواجه، لكنه يرزق بولد منها (عيَّاش) بعد أن تقوم بمعالجة زوجها بالطريقة الهندية التي تعرفها تمام المعرفة، وهي بخلط أنواع من الأعشاب واستعمال سُم الحية ودم البومة والغراب؛ كدواء ما جعل أهل الحي ينظرون إليها بعين الحسد والغيرة، بل إنهم يصفونها بالساحرة، وتعرج الكاتبة على الصراع الذي كان دائرًا بين عائلتي الحسيني التي يمثلها في الرواية (سليم العطار) وعائلة النشاشيبي (التي يمثلها الحاج زهدي لقمان) ويعمل بالسقاية على زعامة الحي و(المقصود زعامة القدس)، وتبين الأساليب التي استعملها كل طرف للإيقاع بالطرف الآخر، لتصل حد القتل والحرق والنهب، فعنبرة تتعرض للحرق لأن عائلة (لقمان) المنافسة لعائلة سليم العطار تعتبر أن عنبرة زوجة سليم العطار هي التي قتلت زعيمها (الحاج زهدي لقمان) بوضع السُّم له بالدواء، فيكون هذا الحادث مِفْصلاً مهمًّا في الرواية، إذ

يستغل بعض المنتفعين هذا الأمر لصالحهم فيصبح (شداد) الذي كان راعيًا للأغنام قائدًا لشباب عائلة سليم العطار، فيسرق ويقتل وينهب ويحرق ما تطاله يداه من أملاك عائلة لقمان الأمر الذي يسبب الألم لسليم العطار، فيختفي في ظروف غامضة عن الساحة، ويرجح الجميع بأنه قُتل على أيدي عائلة لقمان، فيحتشد شباب عائلة العطار الذين يتزعمهم شداد فيقومون بحرق بيوت عائلة لقمان فيهرب من الحي الذين لا يمكن لهم الدفاع عن أنفسهم، وتقوم (أمينة) أخت سليم العطار بإرسال عياش إلى جده وأخواله في الهند خوفًا على سلامته، لتنتقل أحداث الرواية إلى الهند، فالمكان في الرواية له أهمية كبيرة إذ أن القدس غير الهند، فتصف لنا الكاتبة الريف الهندي، وتتغير الشخصيات في مساحة واسعة من زمن الرواية، ينشأ عيَّاش في رعاية جده وأخواله، فيتعلم عن الأعشاب وفوائدها ويصبح خبيرًا بالعلاج بالأعشاب، إلاَّ أنه يقع في حب ابنة (المهراج)، ما يسبب الخوف والقلق عند عائلة جده الذي يعمل مزارعًا هو وعائلته في أرض المهراجا، فالفروق الطبقية كبيرة في هذا البلد، والمهراجا صاحب السلطة لن يقبل بهذه العلاقة، فإذا علم بها فإنه سيقتل عياشًا، ويطرد الجد وعائلته من الأرض التي يعيشون عليها، فصار عياش بين نارين؛ إما (مريم) التي يحبها وتبادله هذا الحب، أو جده

واستقراره وأمنه، ويكتشف بأن ابنة خاله (عائشة) تحبه أيضًا، وتتمسك بحبها له بكل جوارحها حتى أنها تحيك ضد مريم المؤامرات، فيحاول جده إقناعه بصعوبة هذا الحب وأن ابنة المهراجا على الرغم من صدق مشاعرها إلا أنها ليست من ثوبه، فيقرر عيَّاش الرجوع إلى فلسطين، فيصل إلى ميناء حيفا على متن إحدى السفن، ثم ينتقل إلى بيته في القدس لتستقبله عمته أمينة بحفاوة بالغة، فتدعو أبناء العائلة شبابها ورجالها حتى ينصبوه زعيمًا على العائلة مكان والده، فيجابه بمعارضة كبيرة من شداد الذي تتضرر مصالحه بوجود هذا الشاب، فتنقسم العائلة بين مؤيد ومعارض لعيَّاش بتحريض من شداد الذي كون شلة من الزعران والبلطجية، ثم تكتشف العائلة جرائم شداد فتقصيه عن العائلة، وتنفيه خارج المدينة ليصبح عيَّاش الزعيم الوحيد للعائلة.

مرت الأيام، وعمَّ الرخاء، وزادت الأرزاق على أهل الحي في ظل زعامة عيَّاش، العطار الطبيب، إلى أن جاءت (عائشة) ابنة خال عياش قادمة من الهند، فقد حضرت لكي تكون بجانب حبيبها عياش فيتزوجها من باب رد الجميل، وتتوالى الأحداث، ويشارك عياش مع الشباب المجاهدين في مقاومة الزحف الصهيوني على فلسطين، فيصاب العديد منهم، وتتحد الجهود بين عياش وعائشة في تلك المقاومة، فعائشة تداوي

جرحى المقاومة، وعياش يتزعم الشباب في مواجهة العدو. ومرت الكاتبة، أيضًا، على ذكر الأحداث التاريخية المتعلقة بفلسطين مثل قرار التقسيم العام سبعة وأربعين من القرن الماضي، وانتهاء الانتداب البريطاني العام ثمانية وأربعين، ووصف سريع لسقوط المدن الفلسطينية تباعًا في يد الصهاينة، وتدفق اليهود على فلسطين، وتضيق الحالة بعد نكبة فلسطين فيغادر عيَّاش إلى الهند، وهناك يقابل حبيبته مريم التي تخبره بما صنعت بها عائشة وإنها حاولت قتلها بالخدعة والمكر، وأنها لم تنس عياشًا لحظة واحدة، فيتأثر بما قالته، ويتفقا على الاقتصاص من عائشة، إلا أنَّ ضميره لم يسمح له بذلك، فيرجو مريم طالبًا منها العفو والسماح، وفي النهاية يرجع إلى فلسطين ليكمل حياته مناضلاً يقاوم العدو إلى أن يتلقى رصاصة قاتلة في صدره فينضم إلى قافلة الشهداء.(٥)

(٥) ينظر: ديمة السمان، الضلع المفقود (الرواية).

الرواية الثانية: القافلة

صدرت رواية القافلة عن منشورات دار الهدى، كفر قرع، المثلث، في (238) صفحة من القطع الكبير، وتدور أحداث الرواية بين مدينة يافا الساحلية والصحراء الفلسطينية، ومدينة القدس والشتات الفلسطيني، فيمتد زمنها من بداية القرن الماضي إلى نهايته (مائة عام تقريبًا).

وتتحدث الرواية عن (حمدان) البدوي وعائلته، الذي ترك الصحراء ليعمل في مدينة يافا، ينقل البضائع من الميناء إلى بقية المدن الفلسطينية بوساطة وسيلة النقل الأساسية آنذاك وهي الجمل، لكنه يجابه من قبل ابنه الوحيد (صابر) الذي يشعر بأن مكانه الصحراء وليس البحر والميناء، يقول لأبيه بأنه لا يتحمل وجوده في يافا، لأن مكانه الصحراء التي تجري مخاطرها في دمه، أما (حمدان) فتقضُّ مضجعه الكوابيس والأحلام الرهيبة، فتحاول (ريحانة) زوجته مواساته والتخفيف عنه، إلى أن جاء رجلٌ بدويٌّ لزيارتهم ذات مساء، وكان اللقاء حميمًا بينهم، لتكتشف (ريحانة) بأن زوجها على صلة نسب وقرابة مع الزائر، ويفاجأ (حمدان) بأن ابنه (شاهر) الذي كان رضيعًا عندما ابتلعت الصحراء

زوجته وأبناءه ما يزال على قيد الحياة، فتكون البشرى له ولابنه (صابر) الذي صار له أخٌ يستند عليه.

قرر (حمدان) ارتياد الصحراء، فسُرَّ صابر لسماعه هذا الخبر، فسافر (صابر) إلى الحجاز يرأس قافلة الزيت، وسافر حمدان إلى المغرب، ولكنه أراد إحضار ابنه شاهر من بيت جده، أما (ريحانه) فتقنع ابنها (صابر) بالذهاب معه لزيارة أهلها في الحجاز، لكنها تبيت في سرها نية البقاء عند أهلها إذ إنها لا ترغب بالعيش مع ضرة.

تتعرض قافلة (صابر) إلى الانشقاق في صفوفها؛ بسبب الشرير (هُمام) الذي يحاول جاهدا النيل من خبرة (صابر) في قيادة القوافل، فيتيهُ عدد كبير من رجاله الذين انشقوا عنه في الصحراء، فيلجأ (صابر) ومن معه إلى أحد شيوخ الصحراء وهو (الشيخ صالح)، الذي يعتني بالقافلة عناية فائقة، ويلفت (صابر) نظر ابنة الشيخ (حسناء) التي تقع في حبه، لكن (هُمام) الحاقد حاول جاهدًا ضرب إسفين بين الشيخ صالح وصابر ونجح في ذلك إلى أبعد حدود في البداية، لدرجة أن (الشيخ صالح) حاول إنزال أشد عقوبة بصابر، على الرغم من توسّل حسناء، التي أدركت بذكائها كذب (هُمام).

وتدور أحداث متوالية في مضارب الشيخ صالح ومنها انتصار صابر على (عبدون) قاطع الطريق الذي يرهب قبيلة الشيخ صالح من وقت لآخر، فيصبح صديقًا لصابر يعاهده على الوفاء مدى الحياة، لدرجة أنه يجلب لصابر ألف ناقة يعطيها ثمنًا للكاهنة مقابل التخلي عن الدليل الذي يبرئ صابر من تهمته، وبعدها يتزوج صابر (حسناء).

يعود حمدان بصحبة فلذة كبده (شاهر)، الذي لم يتعد الثامنة من عمره، فيطير صابر بأخيه فرحًا، إلا أن صحة حمدان تسوء بسبب هجر زوجته له، فيتفق صابر وحسناء على تقديم المساعدة له، فيقنع صابر أباه بالسفر إلى مضارب زوجته في الحجاز، وتذهب حسناء بصحبتهما، وبطبيعة الحال يذهب (الشيخ صالح) على رأس جاهة كبيرة إلى أهل ريحانة، وتتضافر الجهود لإرجاع ريحانة إلى زوجها لتلتئم الأسرة من جديد، أما (شاهر)، فيزداد ارتباطه بالبحر فيبرع بالصيد حتى يصبح من كبار الصيَّادين، ويملك العديد من مراكب الصيد.

وتعرّج الكاتبة على مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الفلسطيني، تلك المرحلة التي أعقبت هزيمة الأتراك، وبداية الانتداب البريطاني على فلسطين، والثورات الفلسطينية التي نشبت في (1936)، والإضراب المفتوح، ومشاركة صابر وشاهر وحسناء وحمدان في الصراع، وتصف لنا

محاولة الثوار الحصول على الأسلحة للمقاومة، فكل يستخدم أدواته وخبراته لتحقيق ذلك، كما تصف لنا مقدار تعامل الضباط الإنجليز مع العصابات اليهودية. تطول المدة الزمنية، ويشارك في الثورة أبناء صابر حمدان، وسلطان، وعدنان، الذي يضيع في البحر مع الذين غادروا يافا لتلتقطه امرأة وتأخذه معها على إنه ابنها بعد أن فقد ذاكرته، وتسقط قرية دير ياسين، وتعيش البلاد نكبتها الأولى العام ثمانية وأربعين، وتمر الأحداث تباعًا لتصل إلى الاجتياح الإسرائيلي على لبنان (1982)، فيعود عدنان إلى أسرته بعد أن يتقابل مع أبناء عمه عدنان حمدان وعدنان سلطان، في المعتقل الإسرائيلي، فيجتمع شمل العائلة من جديد، إلا أن عدنان شاهر يقرر العودة إلى بيروت ليكون مع أمه التي ربته (سلمى)، لكنه يصل متأخرًا، فقد خطفتها يد المنون، فيقرر الالتحاق بجيش التحرير الفلسطيني بحسب رغبة أمه الأخيرة.(٢)

(٢) ينظر: ديمة السمان، القافلة.

الرواية الثالثة: الأصابع الخفية

صدرت رواية الأصابع الخفية عن منشورات دار الكاتب في القدس العام (1992)، وتقع الرواية التي صمم غلافها الفنان قاسم منصور في (201) صفحة من القطع الكبير.

تدور أحداث الرواية في أعالي البحار بعيدًا عن اليابسة، وتركز الرواية على قصة جوهرة ابتلعها البحر بعد أن عمل جد (عناد) الذي يحمل بطل روايتنا اسمه، فتذكر لنا الكاتبة بأن الحالة الاقتصادية السيئة جعلت (شيخ البحر) (عناد الجد) التحول إلى القرصنة، فجمع العديد من البحارة، وجعل منهم عصابة قراصنة يغيرون على السفن، فيقتلون ويغرقون وينهبون كل ما تطاله أيديهم. وفي هذه الرواية اختلاف عن سابقتيها بأن الخيال يطغى على السرد الروائي، فهي تحلق بنا فوق الصور الخيالية، وتغوص بنا في عمق المحيطات، موظفة الكثير من الأمثال الشعبية والألفاظ القرآنية والأبيات الشعرية، مستعينة بالخيال العلمي تارة، وطورًا بما تحفظه من قصص تراثية كألف ليلة وليلة التي تعتمد على الحكاية الأسطورية، فكان (الجد عناد) لا يترك قتيلاً أو جريحًا على الشواطئ، بل كان يدفن ضحاياه في البحر، إلى أن أغاروا صدفة على

سفينة تحمل علية القوم، فتعرض الأميرة على القراصنة جوهرة ثمينة جدًّا مقابل سلامتها ومن معها، إلا أن بعض القراصنة حرق وجه الأميرة بالمشعل، فما كان من (عناد) الجد إلا أن حاول إطفاء اللهب الذي شبَّ بالأميرة. ماتت الأميرة، وكانت سببًا لتحوله الجذري، فناصب القراصنة العداء.

أصبح عناد أسيرًا لكوابيسه؛ فهو يرى الأميرة المقتولة في أحلامه تحاول الاقتصاص منه، وتحمله سبب موتها وحرقها، وأخذ البحارة ينصبون له العداء، فيقوم بصنع كمين لهم، ثم يحرق السفينة بمن فيها من قراصنة وأموال وخصوصًا جوهرة الأميرة، فهو الذي صنع القراصنة، وهو الذي قضى عليهم مرة واحدة، فقتل حتى مساعده (عنبر) وهو يخاطبه قائلاً: "الجوهرة الآن في قاع البحر يا عنبر.. ليس من غواص يستطيع أن يستخرجها سواك أيها الخائن الغادر".(٥)

اعتمدت الكاتبة في سردها الروائي هنا على الراوي (عناد الحفيد) الذي يستخدم صيغة المتكلم، فيحدثنا عن جده ومراحل حياته، وكيف يغرق في البحر باحثًا عن الجوهرة الثمينة، ثم يحدثنا عن أبيه أيضًا، الذي يبتلعه البحر وهو يبحث عن جوهرة جده، فيكون البحر قد سلب منه

---

(٥) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 33.

أباه وجده، ولكنه في نهاية الأمر يقرر أن يغوص في البحر باحثًا عن الجوهرة التي صارت عقدة الأسرة جميعها، فيركب على مركبه الصغير الذي تحطمه الأمواج فيتشبث بقطعة خشبية منه، إلى أن تسحبه العاصفة، وتتقاذفه الأمواج وترمي به إلى جزيرة نائية لا يأتيها الأغراب بتاتًا، وهناك يحاول اللجوء إلى أحد البيوت، ولكن أصحابها لا يستقبلونه، فيذهب إلى بيت آخر، فيغلقون الباب في وجهه أيضًا، فيلجأ إلى مغارة قريبة من الشاطئ ويعيش فيها، ثم يتعرف إلى بعض شباب الجزيرة، ويصادق (جابر) الذي يعلمه فن القتال والصيد، ويساهم بخبرته كبحّار في إنقاذ أهل الجزيرة من القراصنة، فينال الحظوة عند ملك الجزيرة، ويقع بحب الأميرة وريثة العهد، لكن مجلس الجزيرة يرفضه كزوج لأميرتهم، فيتعرض إلى مؤامرات يحيكها حساده، ولكنه يكتشف أن الأميرة التي قتلها قراصنة جده هي والدة الأميرة حبيبته، وأن الجوهرة هي رمز للجزيرة، فيترك الجزيرة على قطعته الخشبية ويتجه نحو البحر إلى المكان الذي غرقت فيه سفينة القراصنة، فيغوص لإحضار الجوهرة التي كانت سببًا في غرق جده وأبيه من بعده، فغاص عميقًا أكثر من مرة إلى أن حصل على الجوهرة اللعينة، فلما حصل عليها انقلبت حالة الجو، وعمت الفوضى، وبدأت الزوابع والأعاصير، وانفجر بركان جبل الثلج لتغرق

الجزيرة بمن فيها، ولكنه عندما حصل على الجوهرة قرر تسليمها لأصحابها بعد أن هدأ كل شيء، إلا أنهم في الجزيرة اعتبروه سارقًا، فحكموا عليه بالإعدام، ولكن (جابر) صديقه جاء باكرًا وفتح له باب السجن ليذهب عائدًا إلى بلاده وقومه، فيبحر على قطعته الخشبية التي أصبحت جزءًا منه، ولم يهدأ باله ويسكن خوفه إلا عندما لاح له من بعيد منظر مدينة عكا وأضواء الوطن، ورياحه الزكية، فتستقبله والدته، وتخبر خاله وابنة خاله حمدة التي يتزوجها في نهاية الرواية...(٥).

الرواية الرابعة: جناح ضاقت به السماء

صدرت رواية جناح ضاقت به السماء عن مؤسسة إبداع للنشر والتوزيع في أم الفحم العام (1995)، حيث صمم غلافها حسني رضوان، وهي في (246) صفحة من القطع الكبير.

تجري أحداثها في زمن يمتد من بداية الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة سنة (1967) إلى نهاية الانتفاضة الفلسطينية الأولى العام (1993). أبطالها (عبّود) وهو شاب مطارد من قبل سلطات

---

(٥) ينظر: ديمة السمان، الأصابع الخفية.

الاحتلال الإسرائيلي يلجأ إلى الجبال المحيطة بمدينة القدس ليستقر في مغارة مهجورة هناك، ثم يتعرف صدفة إلى فتاة بدوية اسمها (نفوذ) تأتي إلى المغارة بحثًا عن شاتها (المبروكة)، فتنشأ بينهما علاقة حب قوية، فصارت تتردد على المغارة بالسر عن أهلها، فقد كان والدها زعيم القبيلة (الشيخ فلاح)، الذي لم يرزق غيرها من الأبناء، وكان لها ابن عم يطمع في الزواج منها، إلا إنها لم تكن ترغب به لسوء أخلاقه ولجهله وسفاهته، فقد وقعت في حب عبّود، ابن المدينة الثائر الشهم المقدام، وأصبح شغلها الشاغل، فوقفت في وجه الرياح والزوابع، كما وقفت في وجه جنود الاحتلال، لتحمي عبود، بعد أن قام بعملية فدائية قتل فيها العديد من جنودهم. كما تصور لنا الكاتبة حياة البداوة، والتحام الشعب الفلسطيني واتحاده بوجه المحتل، كما تعرّفنا إلى مظهر من مظاهر انتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى ومقاومته للاحتلال الصهيوني، لكن عبود المطارد يصل إلى كنز كان مخبأً داخل المغارة في زاوية يكتشفها بالصدفة عندما اختبأ من جنود الاحتلال حين قدومهم للبحث عن المطاردين في المغارة، فيستخرج الكنز المكون من عدد كبير من الليرات الذهبية، ويقرر النزول من الجبل إلى بيته بعد أن خبأ الذهب واطمأن عليه تمامًا، ويذهب إلى بيته بحذر شديد لأنه كان يظن بأن زملاءه في النضال قد اعترفوا للمحققين

في المعتقل بكل شيء، إلا أنه يكتشف أن زملاءه لم يعترفوا عنه بشيء من خلال الطلب من والده الذهاب إلى السجن لزيارتها وجس نبضهما، لكن والده ينقل له تحياتها ويطمئنه بأن لا غبار عليه، عندها يطير فرحًا، ويقرر الزواج من نفوذ، إلا أنه يتذكر (حمدان) ابن عم نفوذ الشرير، لكن والده يجد له الحل، فيطلب من عبود إحضار عشرين ليرة ذهبية يأخذها معه إلى بيت الشيخ فلاح لخطبة كريمته لابنه، فيقول له والدها بأن ابن عمها حمدان قد تقدم لخطبتها، فيتوجه الأب إلى حمدان ويساومه على ابنة عمه بالذهب، فيتنازل حمدان عن ابنة عمه لعبود مقابل الذهب، فيتزوج الحبيبان، وينجبان مهيوب الذي يعتقل، فتقف الزوجة نفوذ موقفا بطوليًّا صامدًا، بعكس عبود، الذي كان يومًا ما مطاردًا، وهذا يشكل تناقضًا في شخصيته، أما نفوذ فهي قوية متماسكة شديدة البأس قريبة من شخصية المرأة في جميع روايات الكاتبة التي تصور المرأة بأنها الأقوى، والأذكى، كيف لا وهي- أي الكاتبة- تعبر من خلال شخصياتها الروائية عن ذاتها أنها هي المرأة القائدة المتمرسة بأمور المقاومة والنضال.

يفتح عبود ونفوذ مصنعًا للنسيج والخياطة وتتطور حياتهم المعيشية، ويوفرون فرصًا عديدة للعمل. ومن الجدير بالذكر أن الكاتبة تعرج هنا وهناك على مراحل تاريخية مرت على فلسطين وقضيتها، فتذكر على لسان

شخصياتها هزيمة العام سبعة وستين، ومعركة القسطل، وتذكر لنا كيف كان الناس يستقبلون بيانات الانتفاضة الفلسطينية، وكيف أن الأم تحث أبناءها على النضال، وتذكر التاريخ ليكون عبرة للناس، فتذكر صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، كما نلاحظ أن الكاتبة في هذه الرواية أقل توظيفًا للمثل الشعبي من رواياتها الأخرى، لكنها لا تفتأ توظف اللفظ الديني من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وتذكر الزغاريد التي شاعت في الانتفاضة عندما كان أحد المعتقلين يخرج من السجن، فقد زغردت الجدة فاطمة فرحًا بالإفراج عن حفيدها (مهيوب) من المعتقل: "علا صوتها بالزغاريد..

آويها أجا مهيوب/ وهلت بشاير الخير

آويها طلع من السجن/ والرجال التفت حواليه

آويها ربنا يحميه/ ويجعل النصر على إيديه"([١٥])

أو عندما كانت الأم تستقبل جثمان ابنها الشهيد بالزغاريد. ثم تقوم الكاتبة بربط الخلف بالسلف عن طريق إعطاء ابنها (فلاح) عباءة جده (الشيخ فلاح) ليتسلم زعامة القبيلة بدلاً من ابن عمها حمدان الذي لا يرعى قرابة ولا يهتم بالوطن.

([١٥]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 222.

وفي نهاية الرواية يقبض على مهيوب بتهمة قذف الجنود بزجاجة حارقة، وهي إحدى الوسائل القتالية خلال الانتفاضة، ثمَّ يقبض على الابنة فاطمة بتهمة المشاركة في المظاهرات المنددة بالاحتلال، وبعدها يقبض على الأم نفوذ، والتي عندما جنّ جنونها لاعتقال ابنتها، حيث هجمت على أحد الجنود تضربه وتمزق وجهه بأظافرها.

تنتهي الرواية بنهاية مأساوية لا تختلف كثيرًا عن الواقع الفلسطيني، فالأب (عبود) يسجن مدى الحياة، ويستشهد الابن (مهيوب)، فيعم البؤس ويخيم الحزن على العائلة.(١١)

الرواية الخامسة: برج اللقلق

صدرت رواية برج اللقلق عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة العام (2005)، وتقع الرواية التي أخرجها فنيًّا عمر حماد علي في جزئين: الجزء الأول (206) صفحات من الحجم الكبير، والثاني (146) صفحة من الحجم نفسه.

---

(١١) ينظر: ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء.

تدور أحداث الرواية في القدس القديمة، وأبطالها من أسرة مقدسية واحدة ، والرواية تحمل اسم "برج اللقلق" أحد المعالم التاريخية المشهورة في مدينة القدس وتحديدًا في حارة باب حطة في القدس القديمة، ويمتد زمن الرواية قرنًا كاملاً تقريبًا، أي من أواخر العهد العثماني حتى نهاية القرن العشرين.

الكاتبة متأثرة بما سمعته من والديها، وأجدادها وشيوخ مدينتها عن تفاصيل التفاصيل؛ عن الحياة التي عايشوها، وحتى التي نقلوها بالتواتر عن آبائهم وأمهاتهم فيما يتعلق بالمدينة المقدسة، كيف كانت، وكيف أصبحت، عدا عن توظيفها لكل ما قرأته عن تاريخ المدينة المقدسة، وما كتبه عنها الرحّالون الذين زاروها فهي ابنة المدينة التي ولدت وترعرعت فيها؛ وقد اختارت الكاتبة أن يكون المكان الرئيس لأحداث روايتها "برج اللقلق" الذي يحمل اسم الرواية، وهو مكان تاريخي تصفه الكاتبة في السطر الأول من الرواية قائلة: "هناك في الطرف الشرقي الشمالي لسور مدينة القدس العظيم .. داخل عمق البلدة القديمة يقع بيت آل عبد الجبار.. في منطقة اسمها برج اللقلق من حارة باب حطة؛ وبرج اللقلق منطقة مرتفعة تُشرف على المسجد الأقصى المبارك، ويشرف على

جبال الطور والمشهد، وعلى معالم المدينة الدينية والتاريخية، من مساجد وأديرة وكنائس ومدارس ومتاحف."

وقد استهلت الروائية روايتها بوصف دقيق للمكان، ثم شرعت تتحدث عن الأوضاع الاقتصادية البائسة في أواخر العهد العثماني التي عايشتها الأسرة التي يتناوب أبناؤها البطولة الروائية جيلاً بعد جيل، إنها أسرة (آل عبد الجبار) التي دفنت الجد الأول للأسرة في باحة البيت قرب شجرة (بطمة) عمرها مئات السنين، فكانت سيرته منارة يهتدي بها أبناء العائلة، وكان قبره مزارًا يؤمّه أهل الحي للتبرك والدعاء، ويعيش أحفاده على أمجاده ويسيرون على هديه، ويستمدون منه العزيمة والإرادة الصلبة.

ففي أواخر العهد العثماني، تم تدمير الاقتصاد، وازدادت الضرائب، وازداد نهب الأتراك لخيرات البلاد، وازداد الظلم والمظالم، ومع ذلك فإن أسرة عبد الجبار التي توارثت السيادة الاجتماعية لم تستسلم، فكان رأسها دائم البحث عن مصدر رزق جديد، فبعد أن أغلق حانوته لضيق ذات اليد عمل "عتالاً" في باب الخليل، وخاض صراعات مريرة مع العتالين الآخرين الذين رأوا فيه منافسًا عنيدًا لمهنتهم ومصدر رزقهم، وبعد صراعات أدخلته السجن، عمل حطابًا، يحتطب من البراري، ليكون رائدًا بذلك العمل، حتى أن أصدقاءه قد عدّوه أخًا للجن؛ لأن ما قام به

لا يمكن لغيره أن يقوم به إلا إذا كان قد شرب من حليب جنية، فيخزن حطبه في مغارة الهيدمية؛ وهي كهف لا يزال قائمًا تحت مقبرة باب الساهرة ما بين باب العامود وباب الساهرة، فيكتشف عددًا من اللصوص الذين يخبئون مسروقاتهم في المقبرة، فيصادقهم بعد أن يواجههم بشجاعة فائقة.

وهنا توغل الكاتبة في وصف الأحوال المعيشية للمقدسيين، كما تصف المدينة نفسها، حيث كانت تغلق أبواب القدس القديمة من ساعات الغروب وحتى شروق الشمس، لحماية المدينة من اللصوص والغزاة، ومن الضباع المفترسة، حيث كانت الضباع تصل إليها، وكانت أزقة المدينة القديمة تضاء بمصابيح الزيت التي توضع على مفارق الأزقة.

ثم تتحدث عن مقاومة المقدسيين بشكل خاص والشعب الفلسطيني بشكل عام للأتراك الذين طغوا وتجبروا وعاثوا في الأرض فسادًا، إلى أن جاء الانتداب البريطاني، حيث انفرجت الأوضاع الاقتصادية، وانتهى عصر المجاعة الذي صاحب أواخر العهد العثماني، ليبدأ عهد الاستعمار البغيض الذي كانت ذروته فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين تمهيدًا

لإقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، ما دعا الفلسطينيين إلى المقاومة، وكان لأسرة عبد الجبار دورًا رئيسًا في المقاومة.

وتحصل النكبة الأولى في العام (1948)، حيث هُزمت الجيوش العربية التي بنى الفلسطينيون عليها آمالاً كبيرة، وتعرج الكاتبة بعد ذلك على ثورة (23 يوليو 1952) في مصر والتي قادها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والتي توالت المؤامرات عليه لإضعافه وإسقاط حكمه، فكان العدوان الثلاثي على مصر في (29 تشرين أول 1956)، لتتوالى الأحداث إلى أن تصل إلى حرب حزيران (1967)، والتي احتلت فيها (إسرائيل) ما تبقى من فلسطين التاريخية، إضافة إلى صحراء سيناء المصرية، وهضبة الجولان السورية.

وتتواصل المقاومة ويسقط الشهداء من آل عبد الجبار ومن غيرهم، ثم تأتي حرب تشرين العام (1973)، ويليها في العام (1977) زيارة الرئيس المصري محمد أنور السادات لإسرائيل واتفاقيات كامب ديفيد، إلى أن انفجرت الانتفاضة الفلسطينية الأولى في كانون أول (1987)، ويشارك فيها الشعب الفلسطيني بمختلف أعمار أبنائه بدءًا من الأطفال ومرورًا بالشباب وانتهاءً بالشيوخ.

وتطرح الكاتبة في الرواية قضية العمالة للاحتلال من خلال (ليث) حفيد عبد الجبار من ابنته (نفيسة) الذي سقط في براثن العمالة من خلال الجنس والمخدرات، فباع العقارات للمحتلين، ووشى بالمقاومين، ويُقتل في أواخر الرواية على يد والدته بعد أن عاد إلى رشده دون علم والدته، واستعد للقيام بعملية استشهادية يكفِّر بها عن ماضيه الأسود. وتنتهي الرواية بأن تفجر والدته (نفيسة الحفيدة) نفسها بالحزام الذي كان معدًّا كي يفجر به (ليث) نفسه، وهي إشارة إلى أسلوب نضالي من الأساليب التي اتبعتها المقاومة خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى.[12].

(12) ينظر: ديمة السمان، برج اللقلق (1-2).